

2000

شذرات عن واقع العالم الإسلامي خلال القرن التاسع عشر: أحداث ونتائج

محمد المنوني
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط، المغرب

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>

 Part of the [History Commons](#)

Recommended Citation

المنوني، محمد (2000) "شذرات عن واقع العالم الإسلامي خلال القرن التاسع عشر: أحداث ونتائج", *Dirassat*: Vol. 10 , Article 1.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol10/iss10/1>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

شذرات عن واقع العالم الإسلامي خلال القرن التاسع عشر:أحداث ونتائج

Cover Page Footnote

نص الدرس الافتتاحي الذي ألقاهه المرحوم محمد المنوني في مطلع السنة الجامعية 1996-1997. (1) لوثرروب (*)
ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة عجاج نوبهض وتعليق الامير شكيب أرسلان، دار الفكر، بيروت، 1971، الطبعة
الثانية، ح ، 1 ، 1971.

شذرات عن واقع العالم الإسلامي خلال القرن التاسع عشر : أحداث ونتائج*

محمد المنوني

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط

خلال القرون الأخيرة تصاعدت دول أوروبا الى حاجات الاختراعات، فغطت بابتكاراتها كثيراً من الحاجيات البشرية : عسكرية وصناعية واجتماعية وسواها، وقد خيل لجماعات من القارات الأخرى أن هذه الحضارة جاءت لخير البشر أجمعين، حتى إذا كان القرن التاسع عشر أصبحت فروع منها شرا مستطيروا على الإسلام : بالاستعمار والحمايات القنصلية وشتى أنواع التدخلات... وعزز ذلك انتشار التبشير والمبشرين، ليجعل من هذه الغارة المتشعبة حربا استعمارية وصليبية في آن واحد، وبذلك هبت دول من أوروبا لتستخدم معطيات حضارتها في قهر المسلمين واحتلال بلدانهم، ولسوء الحظ زامن ذلك انحدار شامل في سياسة دول العالم الإسلامي، مما مهد لأوروبا أن تسيّر قدما في اعتداءاتها .

وقد تراءى لبعض قادة المسلمين أن واقع الاعتداء إنما هولونٌ جديدٌ من الحروب الصليبية، بينما رأى آخرون أن مصدر هذا الواقع نقمة سماوية جزاءً وفاقاً على انحراف المسلمين .

وقد خلّفت هذه الرؤية الأخيرة للأزمة أصداها في عدد من المؤلفات المعاصرة، انطلاقاً من صيحة الإمام جمال الدين الأفغاني قائلاً في تحليل هذه الظاهرة (1) :

(*) نص الدرس الافتتاحي الذي ألقاه المرحوم محمد المنوني في مطلع السنة الجامعية 1996-1997 .

(1) لوثرروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض وتعليق الأمير شكيب أرسلان، دار الفكر، بيروت، 1971، الطبعة الثانية، حـ. 1، 1971.

« كل هذه الرزايا التي حطت بأقطارنا، ووضعت من أقدارنا، ما كان قاذفاً ببلائه، ورامينا بسهامها، إلا افتراقنا وتدابرننا، والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه.

لو أدينا حقوقاً تطالبنا بها تلك الكلمة التي تهل بها ألسنتنا، وتطمئن قلوبنا بذكرها، وهي كلمة الله العليا. هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق؟ وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا؟ وهل كنا نسيم نيران الأعداء إلا وأقدامنا في صياصيتهم، وأيدينا على نواصيتهم؟

إن لأبناء الملة الإسلامية يقينا بما جاء به شرعهم، أليس على صاحب اليقين بدين الله أن يقوم بما فرضه الله عليه من ذلك الدين؟

أنرضى - ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا - أن تضرب علينا الذلّة والمسكنة، وأن يستبد في ذيارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يخدم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة».

وبعد صيحة جمال الدين الأفغاني، نشير في الموضوع ذاته إلى الرسالة القرنية التي صدرت عن العاهل المغربي، السلطان الحسن الأول عند مطلع المائة الهجرية الرابعة عشرة، وقد تكرر نشرها (2).

ومن المؤلفات الحجازية في الاتجاه ذاته، تأليف الشيخ فضل بن علوي بن محمد الحسيني، المتوفى عام 1318هـ/1900م، ويحمل إسم «عدة الأمراء والحكام لإهانة الكفرة وعبدة الأصنام» والكتاب منشور بالمطبعة الحجرية المصرية من عام 1273هـ. وبالمغرب نشير إلى فقرات متناثرة في رسائل الشيخ أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني (3) ثم كتاب «نصيحة أهل الإسلام» للشيخ محمد بن جعفر الكتاني (4).

(2) ابن زيدان عبد الرحمان، إتحاف أعلام الناس، المطبعة الوطنية، الرباط 1930، ج. 2، ص. 218-234.

(3) انظر هذه الرسائل في مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 3297، وفي كتاب الشيخ محمد الكتاني الشهيد بقلم محمد الباقر الكتاني، مطبعة الفجر، الرباط 1962.

(4) الشيخ محمد بن جعفر الكتاني، نصيحة أهل الإسلام، نشر مكتبة بدر، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989.

ومن جهة أخرى، تسابق الحكام ومن إليهم الى وضع الدساتير، وبرزوا فيها الدعوة الى الإصلاحات الجديدة، وكانت السابقة لذلك هي الدولة العثمانية في دساتير تراجع الفينة بعد الفينة، ثم دستور تونس باسم «عهد الأمان» بتاريخ 20 المحرم 1274هـ 10 شتنبر 1857(5).

وفي المغرب الأقصى لمعت أربع مشروعات دستورية منشورة في «مظاهر يقظة المغرب الحديث»(6).

وبينما هذه الحركات تتلمس التقدم في خطواتها، إذا بها تفاجأ بمقاومتها مقاومة عنيفة، أولاً من إنكلترا ضداً على تركيا، فتعتدي - جهاراً - على الأسطول العثماني المسالم : إحراقاً وإغراقاً(7)، ثم تتابع هذه الكراهية للبعث الإسلامي من جهة أخرى أوروبية، وذلك ما أضعف الأمل في نجاح هذه المحاولات الإصلاحية، وبالتالي ظهر عجز القادة عجزاً بينا، فظهرت مقاومة الشعوب، فكانت ثورة أحمد عرابي باشا في مصر(8)، ومحمد المهدي في السودان(9)، ثم مقاومة الزعيم عمر المختار في ليبيا(10)، والأمير محمد بن عبد الكريم في المغرب(11) وسواها.

ومن الجدير بالذكر أن هذه النهضة كانت في معظم هذه الفترة إسلامية روحية، وذلك هو موقع الأبحاث سالف الذكر، ثم تطورت الى حركة وطنية تعمل للاستعداد المادي الموازي - نسبياً - لما عند أوروبا، وكان في طليعة المفكرين في هذه المرحلة خير الدين التونسي، فيسجل أنه سمع بعض أعيان أوروبا يقول ما معناه «إن التمدن الأوروبي تدفق سيله على الأرض، فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار، إلا إذا أخذوه وجروا في التنظيمات الدنيوية، فيمكن نجاتهم من الغرب»(12).

(5) حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية للنشر، تونس 1976، ص. 206-208.

(6) محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت وشركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، ج. 2، ص. 399-445.

(7) خير الدين التونسي، أقوم المسالك ونقلها عنه محمد بيرم الخامس التونسي في رحلته صفوة الاعتبار، المنشورة مرتين.

(8) خير الدين الزركلي، الإعلام، مطبعة كوستا توماس، وشريكاه 1955، ط. 1، ج. 1، ص. 161.

(9) المرجع نفسه، ج. 6، ص. 245.

(10) نفسه، ج. 5، ص. 226.

(11) ترجمته مذكورة في أكثر من كتاب، انظر : تاريخ المغرب، للتهامي الوزاني، مطبعة الريف، تطوان، سنة 1940، ج. 3، ص. 160-170.

(12) خير الدين التونسي، مقدمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق ودراسة معن زيادة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1978.

وإلى جانب خير الدين التونسي، نشير إلى الصحفي الروسي المسلم، إسماعيل بك غصبر نسكي، وقد زار مصر عام 1324هـ - 1325هـ/ 1907م ودعا - في جمع كبير بالقاهرة - إلى عقد مؤتمر إسلامي عام للبحث في شؤون المسلمين، وقال في بيان المشروع الذي ابتكره :

«إن انحطاط العرب والأتراك لم يكن السبب فيه ضعفا في المعارك، أو نقصا في الاستعداد، أو تأثيراً من الدين الإسلامي الذي هو - بالعكس - موافق للرفقي والتقدم. وإنما السبب فيه هو سلوكنا المخالف لأصول الدين وقواعده، ولذا كان من اللازم عقد مؤتمر إسلامي عام، لا غاية له سوى النظر في أسباب انحطاط المسلمين، وفي الوسائل المؤدية إلى غياب النجاح، والمفضية إلى حصولنا على حصتنا من المدنية الغربية» (13).

وقد تجاوزت جهات من العالم الإسلامي على مستوى بعض الحكام والشعوب مع هذا النداء وأشباهه، فتسارعوا للأخذ بمبادئ التنظيم العسكري الحديث، واستكثروا من اقتناء الأساطيل البحرية ومعداتها، وأرسلوا البعثات إلى أوروبا، واستجلبوا منها المدرسين إلى بلدانهم، ورصدوا لذلك الميزانيات الضخمة.

والى هنا فقد أشرنا عند مدخل هذا العرض إلى أن هذا المد الأجنبي، شارك فيه - إلى جانب الحكام - رجال الكنيسة المسيحية، وبهذا نلقي بعضاً من التوضيح على هذه المساهمة التبشيرية، وقد كان من أهداف مدارسها التدرج بأطفال المسلمين المتمدرسين إلى إبعادهم عن دينهم الإسلامي، واستبداله بالمسيحية، وهو قدر تشارك فيه بعض المدارس الرسمية التي تسيروها الدولة الاستعمارية وذلك ما أدى بالجماهير الوطنية الأولى إلى النفور من هذه المدارس، وقد أفتى علماء الهند المسلمون في منتصف القرن التاسع عشر، بمقاطعة المدارس الحديثة التي أنشأها الإنجليز، واستبدلوها بإنشاء مدارس دينية عربية، وكانت أول مدرسة دينية أنشئت لتنفيذ نظام المقاطعة: هي مدرسة «دار العلوم في دبويند» ثم توالى المدارس بعد ذلك لتكون مجالاً لتعليم أبناء المسلمين فيها (14).

(13) فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين.

(14) عبد المنعم النمر، كفاح المسلمين في تحرير الهند، ص. 122.

وعن خارج الهند يقول ذ. عثمان الكعك التونسي عن سياسة الفرنسيين التعليمية في شمال إفريقيا «... فسعوا الى القضاء على العربية وآدابها بالجزائر وتونس والمغرب الأقصى... وكان أسلوب تعليم العربية قليل الحصة، عديم الجدوى، معطلا لراقي الطالب، موجباً لزهده في لغة آبائه وأجداده، ولغة دينه القويم، وأدبه الكريم» (15).

وقد كان هذا التلقين التعليمي الذي يزهّد التلميذ في لغته هو أحد العوامل التي حفزت وطنياً غيوراً، ووزيراً تونسياً شهيراً، هو الرائد محمود المسعدي، أن يروي عن جيله الأول القولة التالية :

« كنا نعتبر من يكتب أو ينتمي للثقافة الفرنسية شبه خائن» (16).

ومن المؤلفات في الموضوع ذاته «إرشاد الحيارى في تحذير المسلمين من مدارس النصرارى» للشيخ يوسف النبهاني، ثم ألف «مختصر الإرشاد للحيارى»، وهما معا منشوران.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المواقف ضد تعلم اللغات الأجنبية، لم يكن مصدرها جموداً أو نفرةً من هذ اللغات، وإنما كان مبعثها هذا التعليم الاستعماري الذي تعلق عليه واختلطت فيه المادة التعليمية، بما دُسَّ خلالها من الطعن المكشوف في العقائد والمقدسات الإسلامية، فلم يسع العلماء السكوت عن ذلك، فهبوا للدعوة الى مقاطعة المدارس الملتزمة بالتشويح لموقوفات الإسلام، وإلا فهذا الدين وأعلامه لا يعارضون - بتاتا - تعلم اللغات الأجنبية والإفادة منها، ما دام ذلك يسير في خدمة الصالح العام، وقد جاء عند الإمام البخاري عن الصحابي زيد بن ثابت « أن رسول الله ص قال له : تعلم كتاب يهود، فإني ما آمن يهود على كتابي، فتعلمت في نصف شهر حتى كتبت الى يهود، وأقرأ له إذا كتبوا إليه» (17)، وفي «العمدة» للتلمساني أن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله تعالى عنه، كان يكتب للملوك ويحيب بحضرة النبي ﷺ، وكان ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية، تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن» (18).

(15) عثمان الكعك، «مراكز الثقافة في المغرب»، ص. 10-11.

(16) انظر جريدة العلم، الثلاثاء 10 رجب 1418/11، نونبر 1997.

(17) صحيح الإمام البخاري، في كتاب الأحكام.

(18) الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ص. 218-219. ومثله في كتاب التراتيب الإدارية لعبد الحكي الكتاني.

وقد استمر على هذا النهج مع اللغات الأجنبية زمر من علماء المسلمين في المشرق والمغرب، وامتد ذلك حتى العصر الحديث، انطلاقاً من مبادرات محمد علي باشا مصلح مصر، إلى من قلده من حكام الإسلام.

والى الدسائس التعليمية للمسيحيين البروتستانت، كانت لهم حملات عنيفة ضد مقام الرسول عليه السلام، وضد القرآن الكريم والإسلام بصفة عامة، ويستعملون لذلك التبشير بها في مجامع المسلمين، وتأليف الكتب والرسائل التي يوزعونها على نطاق واسع، وبين المناطق التي منيت بهذه الفتنة إقليم الهند، انطلاقاً من منتصف القرن التاسع عشر تقريباً بعد احتلال الإنكليز.

وقد قاوم علماء الهند المسلمون هذه المطاعن النصرانية، بالمناظرة أولاً، ثم بتأليف الكتب والرسائل، وكان في طليعة المؤلفين الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي، فوضع في دحض مزاعم القسيس كتابه «إظهار الحق»، ثم ترجمه إلى العربية بإشارة الإمام الشيخ أحمد بن زيني دحلان، حينما لقيه المؤلف في مكة المكرمة خلال حجته، وقد نشرت هذه الترجمة في جزئين من قطع متوسط، مهمشة بأربع رسائل موضوعية :

الأولى : تعريب رسالة للسيد عبد الله الأكبر آبادي، بترجمة الشيخ رفاعي الخولي

الثانية : التنبيهات في إثبات الاحتياج إلى البعثة والحشر، لمؤلف إظهار الحق .

الثالثة : خلاصة الرجح للدين الصحيح

الرابعة : مختصر الأجوبة الجلية لدحض الدعوات النصرانية، وهذا وسابقتها من تأليف محمد بن علي بن عبد الرحمن الطيبي الدمشقي (19).

وإن هوية هذا المؤلف الأخير «الطيبي الدمشقي» لتلوح إلى إسهام الشرق العربي في هذا التيار، وبالتالي وجوده في بلدانه، وتدل وفرة المؤلفات الصادرة بمصر ضد الحملات التنصيرية، على أن بلاد الكنانة كانت تحتل - بين البلاد العربية - الدرجة الأولى في التبشير المسيحي .

(19) الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي، كتاب إظهار الحق، المطبعة المحمودية القاهرة، عام 1317هـ.

ونختم حديث مصر بالإشارة الى منظومة موضوعية، نظمها ونشرها الشيخ المصري محمد علي المليجي الكتبي، باسم «أصدق الحديث في هدم التثليث»، وقد صدرها بالتحذير التالي «ليعلم كل المسلمين أن هذه البيون وتلك الجمعيات التي ما فتحت أبوابها في نفس الأمر إلا لأجلهم، مؤسسة على الخوض والإلحاد في آيات الله تعالى، والطعن في حضرة الرسول ﷺ، والحط من كرامة الدين الإسلامي والمسلمين»⁽²⁰⁾.

اللهم بارك للأمم الإسلامية في استقلالها، وسدّد خطاها لخير شعوبها وقادتها، واجعل هذه السنة الجامعية فاتحة تقدم وازدهار لجامعتنا وكليتنا، وأسعد اللهم كل من ساهم في تنظيم هذا اليوم الافتتاحي لكلية الآداب بأكادير، وعلى رأسهم سيادة قيدهمها الأستاذ الدكتور حسن بنحليمة، خديم الثقافة والتقدم لكليته، وسليل العلم والفضل.

(20) الشيخ محمد علي المليجي، الكتبي، منظومة، أصدق الحديث في هدم التثليث، القاهرة، مصر.